

## القوة - السلطة

متى تنكشف القوة؟ وكيف؟ متى، وكيف تحتجب وراء سياج السلطة أو مجموع السُّلط في أزمنة دون أزمنة أخرى في تاريخ الحكومات وشتى المؤسسات؟

إن أبرز سمة في هذا العصر استفحال القوة وتراجع السلطة.

فليست القوة - في تعريف بدئي - رديف السلطة، وإنما السلطة عند تفكيكها تنكشف لنا قوة منظمة كأن تظهر في أنساق أو ما يُشبه الأنساق تبعاً للظرفيات التاريخية والوقائع المجتمعية المختلفة، فتختزن بذلك أنظمة فكرية يُمثلها أفراد ومجموعات، وتُحيل بالضرورة على أجهزة سياسية وإيدولوجية ودعائية في مختلف الصُّعد من البلد الواحد إلى الإقليم ومنه إلى القارة وصولاً إلى العالم بأسره.

إن السؤال الذي يختصر بكثافة تفاصيل المأزق التاريخي الذي يسيء العالم بأسره في هذه الأعوام الأخيرة - في رأينا - هو سؤال السلطة والقوة معاً: ماذا يحدث حينما يختل التوازن في العلاقة بين القوة من حيث هي بدء مرجع، حركة تندفع في أي اتجاه ولا اتجاه لها؛ وبين السلطة إذ تُصطدم بالوقائع المباشرة وتتهكّل باستمرار في وهج التاريخ الحادث دون أن تغلق في أبنية مُحددة نهائية... ذلك أنها تتأسس على القوة وما يُمكن أن يكون نقياً لها، على حجة القوة وقوة الحجة معاً، تُهاجم التخوم المحيطة بها حيناً وتلتفت حول ذاتها حيناً آخر خوفاً من السقوط كأن يهتز المشهد فجأة ويتفكك، فتندفع الحواف صوب المركز كي تهدمه وتحتل موقعه وتدفعه إلى الهامش لتستمرّ زمناً في السيطرة شبه الكاملة ثم تتراجع لتربّض أو ترقد هناك في انتظار هيمنة قادمة مُمكنة؟..

### استفحال القوة: موتٌ يهدد الجميع

هو الموت يتوسّط المشهد العام ويتخذ له أشكالاً مختلفة كالحرب والقتل والتدمير والاعتصاب والتهجير ومشاريع الإبادة. إلا أن تراجع السلطة واستفحال القوة في مشهد الموت العام لا ينفيان وجود أيّ تخطيط أو نظام، وإنما القوة مسكونة بالسلطة دائماً، كما أن السلطة تكتمن القوة وتمارس بها التفوذ. وذلك ما يفضح أحياناً الفراغات المستفحلة داخل ملفوظات الديمقراطية ذاتها إذ تتحوّل القوة فجأة من الكمون إلى الحركة المباشرة والعنيفة عند «ضرورة» الدفاع عن الديمقراطية من «الأخطار المحدقة بها»؛ وبذلك تتولّد مرحلة سيطرة القوة على السلطة باسم الديمقراطية ذاتها و«حقوق الإنسان»؛ وتلتقي الملفوظات ونقائضها في مدّ وجزر من ممارسة الديمقراطية تحت لواء نفوذ السلطة إلى إعلان الحرب باستخدام القوة دون الانفصال كلياً عن وهم السلطة والدفاع عن الديمقراطية.

إلا أن استفحال القوة خطر يهدد الجميع بما في ذلك القوة ذاتها. فلا عجب أن يتوقّف مسار القوة ليملاً بعض الفراغات المحيطة به. وما تنازل الأقوى عن بعض المواطنين، وقد بلغت به القوة الأوج، إلا

## استفحال

## القوة

## تراجع السلطة

المشهد الكوني العام

وضياع الفردية (راهننا)

د. مصطفى الكيلاني

آلاف الأطفال والشيوخ والنساء في حربٍ عسكريين ضد مدنيين أبرياء؛ وهو الآلة العسكرية تحتلُّ بلدًا بتعلة إقامة الأمن فيه؛ وهو الحظر يُفرضُ على شعبٍ بأكمله لمعاينة النظام الحاكم داخل البلد؛ وهو التسترُ على ما يحدث من قطع لرؤوس الأطفال وإبادة جماعية وتدمير مساكن واعتصام فتيات وقتل شيوخ وتشويه جثث<sup>(١)</sup>؛ وهو التفاوض وإمضاء معاهدة استسلام يُفرضان بالقوة الصامتة على قيادة فلسطينية تقاذفتها العواصم والحكومات وأربكتها خيانتُ التنقل في ليل المتاهة.

### الاستقطاب الواحد ومستقبل استفحال القوة

تلك هي بعض سمات التاريخ الذي ننتمي إليه اليوم: استقطاب واحد للقوة يُتيح لها فرص التنامي في الاتجاه المعاكس لكل القوى الحادثة والممكنة؛ وحربٌ اقتصادية مدمرة بدأت تكتسح مواطن عديدة في العالم وستنتج عنها اهتزازات داخل البلدان الفقيرة؛ وأمراض اجتماعية كالبطالة والجريمة والتشرد أخذت تهدد أمن كثير من البلدان الغنية.

إلا أن الاستقطاب الواحد المؤقت لا يعني اليوم انتفاء أي مظهر للقوة أو القوى المضادة داخل النظام الرأسمالي ذاته، وذلك باستقراء الخلافات العميقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين المجموعة الغربية أو في التخوم المجاورة لهذا الفضاء المركزي أو ما تبقى من التقيض الآخر التقليدي للنظام الرأسمالي أي الطرف الاشتراكي مُتمثلاً في الصين الشعبية بكتافتها السكانية وواقع نموها وأفاق هذا النمو الممكنة مُستقبلاً.

### من أبرز سمات تاريخ البلدان الاشتراكية المتهدمة فجائيةً قبرٌ جميع المكاسب الثورية وقبر ما سبقها من تضحيات شعبية.

ومن المبالغة في القول الجزم على أساس قراءة تروتسكية لتاريخ الأنظمة الاشتراكية، بما في ذلك تاريخ الثورة الصينية وما عقبها من تأسيس مجتمعي، بأن الرأسمالية هي النظام الوحيد الذي حكم العالم؛ وبأن ما سُمي «اشتراكية» ليس إلا «رأسمالية دولة» تتفنع بإيديولوجيا دكتاتورية البروليتاريا.

ولعل من أبرز سمات التاريخ الفجائي للبلدان الاشتراكية المتهدمة اليوم استتصال جميع المكاسب الثورية وقبر ما سبقها من تضحيات شعبية جسام، في حين تحافظ كثير من البلدان الرأسمالية على تاريخها خارج دوامة الخلافات الإيديولوجية وتصون الذاكرة فيها من

(١) نُشير إلى ما حدث مؤخرًا في قرية ستونبي دُو من إبادة جماعية قامت بها القوات الكرواتية ضد المسلمين في البوسنة الوسطى داخل ما كان يُسمى يوغوسلافيا.

علامة القوة التي أسقطت جميع القوى المضادة لها ولم يتبجج لها إلا الانتقال إلى مرحلة الدمار الذاتي. فينشأ من داخل القوة وعي التدارك خوفًا من سقوط الخصم الكامل وتحول الصراع إلى المواطن

الخلفية؛ وتبادر القوة آنذاك بالسير خطوات إلى الوراء كي ينقلب، بالقصد، مشهد العنف المدمر للآخر فجأة إلى رغبة ملحة في التعايش. وكما يقتدي المغلوب بالغالب عادة حرصاً على البقاء بدافع الوعي أو اللاوعي، فإن التقيض وقد بلغ به الوهن أقصاه لا يجد أمامه سوى الإذعان لإرادة جلاده، فيمدُّ لهُ اليد في ذهول الضحية.

وما كان مستحيلًا في تاريخ الأحزاب المعارضة داخل بلدان العالم اليوم، وخاصة البلدان الأكثر تخلفًا وخضوعاً لحكومات دول الشمال، يُمسي ممكنًا؛ والقضية الفلسطينية تنقلب بعد ترتيبات سرية إلى تفاوض؛ والأرض تُمسي، في الإعلام الرسمي العالمي، ملكاً للجميع، وهي حفنة تراب لمن هم أصحابها الشرعيون في منطق التاريخ والوجود، وهي امتداد مدن وقرى وشطآن لمن لا يملك منها إلا أصداء دول قديمة وأساطير الأولين وخرافة العودة والاستيطان.

وإذا كانت السلطة في أزمته الكفاح الإنساني المعتادة حركات صعود ونزول، اندفاعات وتراجعات، انتصارات مؤقتة وهزائم قادمة، تشارك في النفوذ عادةً بأساليب التعاقد والانتخاب، فإن القوة في فترات صعودها الأساسوي ضمن أزمته محددة على امتداد التاريخ الإنساني وتحديدًا في هذا المشهد التاريخي الراهن الذي تنتهي إليه اليوم هي التني الكامل لأي وجه من وجوه الاختلاف. أي أن «القتل الأبوي» يستلزم تمزيق ذوات الأبناء والأفراد والشعوب والمجموعات الإقليمية والقارية على حدٍ سواء وتحطيم المرايا، كل المرايا، كي تُسد على الأبناء جميع السبل المؤدية إلى رؤية الوجوه في حالات غيبوتها استعداداً للخروج من دوامة الملامح المتشابهة وإبصار الوجه الأبوي الواحد كما يبيّن في قنوات الإيصال الإعلامي وبرامج التثقيف الكوني المنظم.

لقد كانت السلطة في العالم تُتيح حتى الثمانينات فرص ممارسة نفوذها لمواجهة التقيض الأكبر الآخر. ولكن «الأممية الثالثة» وقد تقوّض بنائها استحالت إلى محيط تابع للنظام الرأسمالي العالمي، فاستعادت «الأبوة» الحديثة واحدة وجهها بعد أن تفسخت ملامح الوجه الناشئ منذ ثورة أكتوبر ١٩١٧ وعادت إلى ملامح الوجه القديم.

### سقوط مختلف الإيديولوجيات في زمن استفحال القوة

فلا عجب اليوم في ظل هذه الاختلالات العميقة أن تستيقظ مختلف الإيديولوجيات دفعة واحدة حينما تفكك الإطار الذي يصل بينها.

تتصاعد القوة العسكرية وتتصاعد القوة في شكلها الإعلامي والسياسي؛ وإذا المشهد واحد وإن تعددت الوضعيات والأساليب: هو مشهد الطائرات المغيرة باسم الدفاع عن الأمن العالمي تسقط

التعطل والتلاشي. وإذا كانت الديمقراطية الغائبة أو الكسيحة في ظل تلك الأنظمة قبل سقوطها هي سبب الانهيار بعد تراكمات الأخطاء نتيجة لتفاهم البيروقراطية السياسية والإدارية، فإنها اليوم شعار والسلاح اللذان يُستخدَمان لضرب الأمن الاجتماعي والثقافي ونسف كيان الدولة والمجتمع وتحويله إلى حطام تابع لنفوذ الآخر والتأمر على الوطن والديموقراطية ذاتها.

ولا يخفى عن الأنظار ما تمثله اليابان في المجال الآسيوي من قوة ليست، كالألمانيا، منسجمة تماماً مع مركز الاستقطاب الرأسمالي؛ ولكن تبعات الماضي والحرب العالمية الثانية تمنع البنين راهناً ومنذ الأربعينات من الاندفاع بحرية كاملة خارج أطواق الآخر المتغلب. كما قد تبدو قوى أخرى جهوية في مناطق كثيرة من العالم قادرة مستقبلاً على الإسهام في إعادة التوازن الكوني وتنظيم القوة كي تستعيد مواضعها الخلفية وتدع للسلطة حق ممارسة نفوذها بالقوانين والمؤسسات ومنطق الحوار والتفاوض على أساس مبادئ كبرى تُلزم أخلاقياً احترام القوى للضعيف؛ إذ بالقوة المضادة يمكن وقف انتشار نفوذ القوة وإنشاء نظام حماية عالمي جديد.

ولكن الحرب الاقتصادية التي أخذت تكتسح العالم راهناً، وشبح استفحال الظاهرة الاستعمارية الجديدة بالهيمنة على مصادر الغذاء والطاقة والإعلام، يُؤكدان صعوبة المعارك القادمة وينذران بأعوام قاسية في مستوى العلاقات بين الدول والأزمات الاقتصادية والهزات الاجتماعية المنتظرة داخل معظم البلدان في العالم. وما حدث منذ حرب الخليج وانهيار الاتحاد السوفياتي ليس إلا بوادر مرحلة مخاض صعب تصل بين حقبين في تاريخنا المعاصر.

## تحرير فردية الإنسان شرط أول للخروج من المازق الزاهن

كلما استفحلت أزمة الإنسان توجب إعلان تحرير الفردية من الضياع. ذلك أن القوة والسلطة موضوع الإنسان والفردية المهتدة دائماً بالتلاشي في حركة الارتداد إلى ماضي النفوذ الجمعي. وإذا كان هذا النفوذ في عصور التاريخ المنقضية يُمارس تحت لواء الدين في مراحل وألوانه المختلفة، فإنه اليوم - وقد تداعت شتى الإيديولوجيات - لم يبق من التجريدات والقداسات إلا البراغميات تتخذ لها أشكالاً سياسية وإعلامية وعلمية وتكنولوجية عديدة؛ وكأننا بذلك نفتحم عصر تدجين الإنسان وفسخ الذات الفردية إلى عقود طويلة. وما على ثقافة الاختلاف اليوم إلا أن تجزئ الأسئلة وتعيد النظر في معظم المساءلات قبل أن يشمل طوفان «الدين الجديد»<sup>(٢)</sup> كل

(٢) «الدين الجديد» الذي أخذ يكتسح العالم وأسقط جميع الإيديولوجيات وسحوّل المعتقدات القديمة إلى طواهر متخفية في العقود القادمة هو «البراغماتية» التي تعتمد «المصلحية» مذهباً و«الإعلامية» ومختلف الاكتشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية وسائل لاكتساح العالم وامتلاكه. وهو «دين» أشد دغماً من الأديان السابقة، وأخطاره أشد على ما أسميناه فردية الإنسان

البلدان والمؤسسات والعقول.

لم يعد مجال الاختلاف اليوم كائناً بين العلم وما هو خارج عن العلم، أو بين الحرية ونقيضها، أو بين حقوق الإنسان وما هو معاد لتلك الحقوق، أو بين الاستغلال بأصنافه المختلفة وما هو نقيض الاستغلال، أو بين الدغمائية في شكلها العقدي أو السياسي والفكر التعتدي. بل تحول الصراع إلى داخل ماهية الإنسان - الفرد، وانكشف للجميع تيار «قتل الإنسان» ومحاصرة فرديته بلغة الحرية ذاتها و«حقوق الإنسان» والديموقراطية والاختلاف... كل ذلك في مشهد كوني عام انتقلت فيه القوة من مرابضها الخلفية إلى واجهة الممارسة السياسية والحضارية بأساليب الهيمنة العسكرية والسيطرة شبه الكاملة على كينونة الفرد.

## «البراغماتية» التي تعتمد «المصلحة» و«الإعلام» أشدّ خطراً على فردية الإنسان من الإيديولوجيات التي سقطت!

ولا يمكن أن تُردّ القوة إلى مواطنها الخلفية لإيقاف زحفها على مراكز السلطة في كل المواضع إلا بقوة مضادة من طبيعة مختلفة هي القوة المعرفية التي تتأسس حتماً على أخلاق جديدة توصل نهج الأخلاق التي دعت في عصور تاريخية منقضية إلى ضمان حرية الفرد وحقه الكامل في الاختلاف تفكيراً وتعبيراً... وقد تبين لنا في تاريخنا المعاصر أن ليس للفكر عند استفحال الأزمات إلا اللجوء إلى مراجعة أخلاقية تعيد للإنسان (أفراداً وشعوباً) حضوره المتقدم وتحول قيمه إلى سلطة عليا تمنع كل السلط من الزيغ أو الارتداد، فيتأكد مفهوم آخر للثورة خارج مشهدية الدم والحرائق والجثث وآلاف المشردين والجائعين.

كيف يستعيد المجتمع الكوني نفوذ السلطة أو قوة السلطة ويتحرر من سلطة القوة؟

كيف تتجاوز ثقافة الاختلاف مازق الأسئلة المتكررة بمساءلات جديدة وآفاق معرفية مختلفة؟

كيف يُحرر الإنسان الفرد من واقع سياسة التدجين ويُدفع إلى الحياة خارج أطواق البراغميات في ممارسة نفوذ القوة؟

كيف نعيد للفرد مواقفه الريادية ونخلص المجتمعات الراهنة من غلبة النفوذ التكنوقراطي بإيديولوجيا «علموية»؟ وما هي خصوصيات المازق الزاهن في المجتمعات العربية؟

أسئلة عديدة مدارها استفحال القوة وتراجع السلطة وقد تُتاح لنا فرص الكتابة فيها...

إن وجدنا الأمان في التعميم؛ فقد نصطدم بنفوذ القوة ذاتها عند التجزيء، وما ندعو إليه يتجاوز جهود قلم واحد وصوت واحد.

(تونس)